المحاضرة الثانية عشرة

الفلسفة الإسلامية: علم الكلام: التيارات الكلامية:

ثانيا: التيار العقلي ـ المعتزلة

أصول المعتزلة الخمسة: للمعتزلة أصول خمس تتفرع عنها كثير من المسائل، وهي (التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

الأصل الأول : التوحيد : أن المسلمين جميعا يقولون بالتوحيد ، ولكن المعتزلة تعني بالتوحيد : تنزيه الله المطلق عن صفات المخلوقين ، (فالله ليس كمثله شيء) ، هذه آية محكمة يؤول المعتزلة على ضوئها كل آية يدل ظاهرها على تجسيم الله ، فكل ما يدور في خلد الإنسان لا وجود له عند الله ، وهم بذلك يردون على :

١ ـ القائلين بالتشبيه من اليهود والنصارى . ٢ ـ بعض الفرق الإسلامية (المجسمة والمشبهة).

يقسم المعتزلة صفات الله إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الصفات الذاتية (الكمالية) وهي الصفات التي تتعلق بذات الله لذا عرفت بالذاتية وهي (العلم والقدرة والحياة) ، وهذه الصفات لا هي قديمة ولا حديثة وإنما هي عين ذات الله ، فمثلما لا يوجد فرق بين النار والحرارة ، فالنار هي الحرارة والحرارة هي النار ، فهذه الصفات هي عين ذات الله ، فعلم الله هو الله (هو هو) ، وقدرة الله هي الله (هي هو) ، وحياة الله هي الله (هي هو) ، وهذه الصفات تتميز :

أ ـ يتصف بها الله دائما وأبدا . ب ـ لا يتصف بأضدادها كالجهل والعجز والموت .

القسم الثاني : الصفات الفعلية : وهي الصفات التي تتعلق بالمخلوق كالخالق والرازق والمحيي ... الخ، وهذه الصفات تتميز بـ: أ ـ يتصف الله بها إذا وجد المخلوق .

ب ـ يتصف بها وبأضدادها: المحيي ـ المميت، الضار ـ النافع، العفو ـ المنتقم، وهكذا.

القسم الثالث : الصفات الجلالية (السلبية) : وهي الصفات التي يجل الله عن الاتصاف بها كالظلم والتجسيم والرؤية أي التي لا يتصف الله بها ، فالله لا يصدر عنه ظلم ، وأنه تعالى ليس بجسم لذا أولوا الآيات القرآنية التي ظاهرها يشير لاتصاف الله كقوله تعالى ((يد الله فوق أيديهم)) ، و((تجري بأعيننا)) ، و((الرحمن على العرش استوى)) ، و((كل شيء هالك إلا وجهه)) ، فقالوا أن اليد تعني العون والتسديد ، والعين تعني الرعاية ، والاستواء يعني السيطرة والاستيلاء والتغلب ، والوجه يعني البهاء والسلطان .

وقد اعتمد المعتزلة على أدلة سمعية وعقلية في نفي اتصاف الله بالتجسيم ، فمن الأدلة السمعية قوله تعالى ((ليس كمثله شيء)) ، ومن الأدلة العقلية ، إن الإنسان بحاجة لليد أو العين وغيرها ولكن الله ليس بحاجة لذلك ، ثم إذا كان لله يد أو عين فانه سيكون مركب ، والمركب لا يتم إلا بتجمع أجزاءه أي احتياج بعض الأجزاء لبعض ، وهذا يعني أن الله فقير لهذه الأجزاء وهذا يتنافي مع أن الله غني عن كل شيء .

وترى المعتزلة أن الله لا يرى لأن الرؤية تقتضي الجسمية والجهة والضوء ، فحتى يرى يقتضي أن يكون جسما والله ليس بجسم ، وان يكون في جهة ما والله اكبر من كل شيء فلا توجد جهة تحتويه ، ثم إن الرؤية تقتضي الضوء أي إن الجسم المرئي يرسل شعاعا إلى العين لتراه وبما إن الله ليس بجسم فهذا يقتضي عدم وجود الضوء المرسل وبالتالي لا تتحقق الرؤية . ويستند المعتزلة في نفي رؤية الله على أدلة سمعية كقوله تعالى ((لا تدركه الإبصار وهو لا يدرك الأبصار)) وقوله تعالى للنبي موسى (ع) (لن تراني)) ، ولكن هناك آيات تفيد الرؤية كقوله تعالى ((وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة)) أول المعتزلة الآية إن كلمة ناظرة تعني (منتظرة) فالآية تعني : وجوه يومئذ منتظرة إلى رحمة ربها أو أمر ربها .

أما بالنسبة إلى كلام الله فانه ليس أزلي وإنما مخلوق وذلك :

١ ـ إذ إن في القران أمر ونهي ووعد ووعيد وهذا يقتضي وجود المأمور أو المنهي أو الموعود.

٢ ـ ثم لو كان كلام الله قديم لشارك الله في الإلوهية لان القدم صفة ذات للإلوهية .

٣ ـ إن في القرآن صفات لا يتصف بها القديم فهو يتجزأ ويتبعض إلى أثلاث وأرباع .
٤ ـ القران يصف القران انه محدث ، وكل محدث فهو مخلوق .
الأصل الثاني: العدل: العدل أهم صفة للفعل الإلهي وهو ما يقتضيه العقل من الحكمة أو صدور الفعل على وجه الصواب والمصلحة ومن أهم المسائل التي ناقشوها تحت هذا الأصل مسالة نفي صور القبيح عن الله ردا على القائلين بالاثنينية الذين نسبوا الشر لخالق آخر لأنه برأيهم لا يصدر الخير والشر عن اله واحد .
يرى المعتزلة : ليس كل ما يكرهه الإنسان يعد قبيحا ، ويفرقون بين الحسن والقبح من جهة والنفع والضرر من جهة أخرى ، فقد يحسن ما هو ضار أو مؤلم كما قد يقبح ما هو نافع ، فإذا كان الألم في مصلحة الإنسان فلا يعد قبيحا كالحجامة والفصد وبتر الأعضاء للعلاج أو شدة الوالد من اجل تربية ولده . ويرى المعتزلة أن الكوارث والآلام ليست قبيحة لأنها امتحان للإنسان ليستحق الثواب بالصبر، إذ لو كان الإنسان دائما في نعيم لبغى في الأرض. ولكن إذا كانت الدنيا دار تكليف يمتحن فيها الإنسان بالنعم والنقم معا، فهل ترك الله الإنسان دون هداية وإرشاد ؟ يرى المعتزلة إن الله لم يدع الإنسان دون هداية ولكن دون إجبار وهذه نظريتهم في **اللطف الإلهي** وهو كل ما يوصل الإنسان إلى الطاعة ويبعده عن المعصية ، وأول مظاهر اللطف الإلهي العقل فبالعقل يكلف الإنسان ويحاسب ثوابا وعقابا ، ثم تأتي الشرائع (النبوات) اللطف الثاني .
إن أفعال الله تهدف إلى غايات محمودة ، فإذا كان مافي هذا الكون يدل على إحكام التدبير والنظام وموصلا إلى الغايات المحمودة فلابد من إيجاد ذلك الكائن العاقل الذي يدرك سر الوجود وهو الإنسان ليتفكر ويتدبر ويؤمن ويعتبر ، ولذا خلق المخلوقات غير المكلفة لنفع الإنسان ولكن ليس نفعه المادي فقط فالحيوانات المفترسة يتحرز منها الإنسان خوفا فمن باب أولى التحرز من عذاب الله ، فليس المقصود حسب مقتضى حكمة الله بصلاح الإنسان نفعه المادي ، فكل ما ينال الإنسان من السراء والضراء والغنى والفقر والصحة والمرض فهو صلاح له وهذه هي نظرية المعتزلة في وجوب فعل الصلاح والأصلح على الله .
لقد أكد المعتزلة على حرية الإرادة، فالإنسان حرا في أفعاله، وأدلتهم في ذلك:
١ ـ كيف يكلف الإنسان ويحاسب إذا كان مجبرا ؟ ذلك يتنافى مع عدل الله !
٢ ـ كيف يخلق الله أفعال الإنسان السيئة كالظلم والشر ؟
٣ ـ لو كان الظلم والفساد من قضاء الله لاتصف الله بذلك .
٤ ـ لو كان الإنسان مجبرا لوجب أن يكون الكافر مطيع لله ، ولاستوى الكفر مع الإيمان ، وللزم أن يكون الأنبياء مخالفين لمراد الله لأنهم ينهون عما قدره الله .
٥ ـ إذا كان الإنسان مجبرا فلماذا بعثت الأنبياء؟ فالكفر والإيمان واقعان لا محالة بعثت الأنبياء أم لا ؟
٦ ـ لو كان الكافر مجبرا إذا تكليفه بالإيمان تكليف بما لا يطاق ؟
٧ ـ أما أدلتهم السمعية فقوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، وهناك آيات تمدح المؤمنين وتذم الكافرين والمنافقين والعاصين .
ومن المسائل التي ناقشها المعتزلة تحت هذا الأصل الحكم على حسن الأفعال أو قبحها شرعي أم عقلي ؟ يرى المعتزلة إن الحكم على حسن الأفعال وقبحها يرجع إلى العقل فالصدق حسن لان العقل حسنه والكذب قبيح لان العقل قبحه عكس الاشاعرة التي ترى إن ذلك راجع للشريعة ، لكن المعتزلة ترى إن الحكم على ذلك لا يحتاج للشريعة فعرب قبل الإسلام كانوا يعرفون الصدق حسنا والكذب قبيحا قبل أن تأتيهم الشريعة .
الأصل الثالث: الوعد والوعيد: الوعد هو كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه مستقبلا، والوعيد كل خبر يتضمن إيصال ضرر إلى الغير أو تفويت نفع عنه مستقبلا .
فالله وعد المؤمنين بالجنة وأوعد الكفار والمنافقين والعاصين بالعذاب لذا يجب على الله أن يفي

بوعده ووعيده ولا يجوز العفو إلا عن الصغائر لان ذلك يغري المكلف بفعل القبيح اتكالا على عفو الله ، وليس له إلا التوبة الخالصة وهي :
أ ـ الندم على ما فات من معاصي . ب ـ العزم على عدم العودة للمعاصي .
ج ـ أن ينظر في معاصيه فان كانت بينه وبين الله من صلاة وصوم وزكاة وحج فعلية أداؤها، وان كانت بينه وبين الناس فعليه إعادة حقوق الناس. وعليه أن يداوم على التوبة ولا يعاود لارتكاب الكبيرة عندها تستكمل التوبة شروطها وتصح.
الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين: هذا الأصل يفسر موقف المعتزلة من مرتكب الكبيرة، فهل هو مؤمن كما تقول المرجئة أم كافر كما تقول الخوارج ؟ ترى المعتزلة انه ليس مؤمنا مطلقا (كيف يسمى مؤمنا من يسرق أو يقتل أو يضرب الكعبة بالمنجنيق أو يأمر بقتل الإمام الحسين (ع))، ولا يسمى كافرا لأنه (يتشهد الشهادتين وقد يصلي)، ولكنه في منزلة بين الكفر والإيمان في دار الدنيا حتى وفاته، فإن تاب قبل الموت التوبة الصحيحة بشروطها ارتقي إلى درجة الإيمان ودخل الجنة، وإن مات بلا توبة هبط إلى درجة الكفر ودخل النار، وقد طبق معتزلة بغداد ذلك على أصحاب الجمل وصفين، فقالوا أن أصحاب الجمل ارتكبوا كبيرة بخروجهم على أمير المؤمنين (ع) وقتاله لكنهم تابوا لذا حكموا بتوبتهم ودخولهم الجنة، ولكن أصحاب صفين ارتكبوا كبيرة بخروجهم على أمير المؤمنين (ع) وقتالهم إياه، ولكنهم لم يتوبوا وماتوا على كبيرتهم لذا حكموا بكفرهم ودخولهم النار.
الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هو الأصل العملي الوحيد إذ باقي الأصول نظرية، وهو واجب كفائي إذا قام به من به الكفاية سقط عن الآخرين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شرائط منها أن يعلم أن ذلك لا يؤدي إلى مضرة أعظم منه، وان يعلم إن لأمره أو نهيه تأثير، وان كان في ذلك إعزاز للدين فيحسن هنا الأمر والنهي كما حصل للحسين بن علي (ع). ويكون النهي عن المنكر ضمن مراتب (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)، فالذي يستطيع استخدام القوة (اليد) يستخدمها مثلا مع الزوجة والأولاد، أو الوعظ والإرشاد (لسانه)، وإذا لم يستطع فلينكر ذلك بقلبه.